وكذلك الكتابة بالبند الأسود العريض للأَّفتات والمنشورات الَّتي راجت في نهاية كلِّ مقطعٍ بكلمة (لافتةٍ) أو (منشورٍ سرّي)، أو بتكرار لازمة بخطٍّ عريضٍ (قادرٌ أن أغيّر: هذا هو اسمي) للفت انتباه المتلقّي[1].

بهذا الشَّكل كانت قصيدة "هذا هو اسمي" لأدونيس «نموذجاً فذًا، للإفادة من التَّدوير وما يشتمل عليه من ثراءٍ، إيقاعيٍ ومرونةٍ تشكيليةٍ، دون أن يتحوَّلَ إلى قالبٍ، جاهزٍ، يحدُّ من تجاربِ القصيدة المدوَّرة، في شعرنا الحديث»[2]، فأدونيس كما آلفناه يبتعد عن كلِّ جاهزٍ، مألوفٍ ليبدع أشياء ترفع من قدر هذا الشِّعر وتضمن له الدِّيمومة والتَّجدد مع كلِّ قراءة، هنا تتحقَّق كفاءة هذا النَّوع من الأساليب المفارقة التي لا تكتسب جماليتها بذاتها وإنَّما بعدد قراءاتها [3].

يبقى لكلِّ هذه الأشكال الغامضة والواردة إلى النَّصِ استنطاقات، ومعاني يقدِّمها المؤوّلُ مع كلِّ قراءة يُجدِّد فيها معاني هذه القصيدة الأدونيسيّة الغامضة.

المبحث الثَّاني

كفاءة النُّقاد الرافضين لشعر أدونيس

كان لمواقف قبول النِّتاج الأدونيسي الشِّعري والنثري جانب آخر، فمن النُّقاد من رفض شعر أدونيس. ولم يقتصر رفضهم على دراسة قصيدة "هذا هو اسمي" أو غيرها، وإنَّما رفضوا كلَّ شعره؛ لأنَّه غامضٌ ومبهمٌ، أحجيةٌ معقَّدةٌ، لا تخرج بتأويل، وهو بذلك ثمرةُ تجاوزٍ وثورةٍ على النَّسق الماضوي التراثي أو ما سمته العرب بعمود الشِّعر، وتغييره يكون بانتهاك حَرَمُ اللُّغة وتثويرها وشحنها، لتشير أكثر ممَّا تقول[4].

(1) العلاق، علي جعفر. في حداثة النَّص الشِّعري (دراسة نقديّة). ص: 87.
(2) المصدر نفسه. ص:87.
(3) ينظر: الموسى، خليل. آليات القراءة في الشِّعر العربي المعاصر. ص: 155.
(4) اسماعيل، عز الدّين. «مفهوم الشّعر في كتابات الشُّعراء المعاصرين». ص: 55.

من هنا تعالت أصوات النُّقاد العرب في التَّصدّي لهذا الموقف الأدونيسيّ، النَّهضويّ إزاء التراث واللُّغة وجعله في ميزان النَّقد. فكلُّ قصيدة من قصائده إلاَّ ويسعى الشَّاعر من خلال بثِّها، إحداث طفرة نوعيَّة تساعده على تغيير لبنات هذا النَّوع من الكتابة السَّهلة الصَّعبة في آن واحد.

1. موقفه من التُّراث :

لعلَّ من سهام الرَّفض الأولى الَّتي وجَّهها النُّقاد لأدونيس مسألة تعامله مع التراث؛ إذ يرون أنَّه رفضه وانسلخ منه نهائيّا، وهذا ما لمحه القارئ في كتابه (فاتحة لنهايات القرن، بيانات من أجل ثقافة، عربيّةٍ جديدةٍ)؛ حيث يقول: « إنَّني أدعوا إلى نبذ الماضي، جملةً وتفصيلا، والتخلّي عن تراثنا وشخصيتنا»[1]، فهذا دليل قاطعٌ، يؤيّد وجهة نظر النَّاقد جهاد فاضل الَّذي جيَّش كلَّ جنده في رفض كتابات أدونيس الشِّعرية والنَّقدية معاً؛ لأنَّهما وجهان لعملةٍ واحدة[2]، وإن كان كتابه (الثَّابت والمتَّحول) «قبلةً للنُّقادِ وأحد الأعمال الهامَّة الَّتي لا يمكن تخطِّيها عند البحث عن قضايا التراث العربي» [3]، إلاَّ أنَّ النُّقادَ- وعلى رأسهم جهاد فاضل- يقفون منه موقف عَداءٍ وضِدّ.

يرى النَّاقد "جهاد فاضل" أنَّ أدونيس يعامل التُّراث، معاملة جفاءٍ واستبعادٍ؛ فهو من خلال تعبيراته «يكاد يقول لك في كلّ صفحة، أنَّه ليس فقط غير محبٍّ لهذا التّراث؛ بل حاقد عليه ومُزْدَرٍ له ومنتصر لكلّ من حمل معولا لهدم كلَّ أصلٍ من أصول هذا التُّراث؛ بل هو أكثر من ذلك كائد للعرب كعنصر وجنس، نظرته إليهم مستقاة من القاموس النَّازيّ الَّذي قرأه أدونيس في الأربعينات، لا من أيّ قاموسٍ أخر»[4].

ولم يكتفِ الناقدُ بهذا القدر في مهاجمته لأدونيس وفكره، فقد خصَّص له فصلاً كاملاً من كتابه "قضايا الشعر الحديث" سمَّاه بـ"كتابات حول الشِّعر والحداثة، وكلُّ مواقفه وآرائه إزاء الرَّجل مرسومة في هذا الكتاب النَّقدي الرَّافض لمواقف أدونيس.

---

(1) أدونيس، علي أحمد سعيد. فاتحة لنهايات القرن (بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة). ص: 302.

(2) ينظر: الخزعلي، محمَّد «الحداثة فكرة في شعر أدونيس ». ص: 99.

(3) سلام، رفعت. « الثَّابت والمتحوّل لأدونيس (نظرة نقدية منهجية) ». مجلة أدب ونقد ؛1989 م، القاهرة. ص: 74.

(4) صدمة الحداثة لأدونيس (صدمة لأصول البحث العلمي ولروح الحداثة). فاضل، جهاد. نقلا عن: « إشكاليَّة الموقف الأدونيسي من التُّراث في ميزان النَّقد ». تاوريريت، بشير. مجلة التواصل، جامعة باجي مختار، عنانة، الجزائر، (ع23)؛ جانفي 2009م. ص: 71.

يجزم الناقدُ أنَّ أدونيسَ «صاحبُ نظريةٍ فاسدةٍ، ملخَّصُها أن التراثَ العربيّ ثابتٌ»[1]، وإحياؤه لا يكون إلا بتجاوزه شكلاً ومضمونا؛ بحيث لا يُنظر إليه على أنَّه مقدَّسٌ، وإنَّما بإعادة تشكيله وقراءته بمعايير الحاضر أو الحداثة، وبعيداً عن كلِّ إيديولوجيا، ثمَّ ذكره في فصل آخر تحت عنوان (حداثة أم تخلُّف وطائفيَّة) [2]، لينهال على وصفه بالمافيا الَّتي قزَّمت الفهم للتراث، فيقول: «وهذه المافيات الَّتي ترتدي حلَّةَ الحداثة هي مافيات طائفيَّة»[3]، لا علاقة لها بالإبداع والجمال.

ولَمَّا كانت القضيةُ دسمةً في كثير من جوانبها أنشأ المؤلِفُ قسماً آخرَ من كتابه سمَّاه (بثعالب الحداثة) [4]، وفيه سلَّط الضَّوء على قضية من قضايا اللُّغة الشِّعريّة؛ وهي قضية الغموض الَّذي رفضه مبرِّرًا هذا الرَّفض بقوله: «ألاَ يكون الأمر مخزياً ومخجلاً عندما يُسأل البيَّاتي عن (مفرد بصيغة الجمع) لأدونيس، فيجيب بما يلي:لم أستطع قراءته، فقد قرأت سطرين منه ورميته جانباً؛ لأنَّه ليس بشعر ولا بنثر، بل هو جنس ثالث، هجين، مفكَّك، ليس فيه صورة أو فكرة أو تجربة ويدلُّ على أنَّ كاتبَه مصابٌ بمرض يَستعصي شفاؤه»[5]، ولهذا الشأن استبعده القراء ونبذوه.

كما خالفه -النَّاقد – أيضاً في نظرته للدِّين وللشَّاعر المسلم والحضارة العربيّة والثَّقافة والتَّاريخ الأمر الَّذي أضحى جليّا في مقاله الموسوم: بصدمة الحداثة لأدونيس (صدمة لأصول البحث العلمي ولروح الحداثة)، وفيه يُقَدِّم النَّاقد رؤية أدونيس وكيفيّة تعامله مع الدّين والإسلام فيقول :«إنَّ العربيَّ في صدمة الحداثة شخص ماضوي، يستخدم موروثه لكي يفهمَ كلّ شيء، وما يتناقض مع هذا الموروث لايكون جديراً بأن يُعطيَ أيَّة َقيمة(...) وكأنَّ أدونيسَ مستشرقٌ من لندن »[6]، وبمعنى آخر أنَّ كلّ تجديد وإبداع لم يعرف له مورد في التراث لا قيمة له في ذاتية العربيّ.

خَتَم النَّاقد مقالَه بجملة من النّتائج كان من أهمِّها أنَّ أدونيسَ كارةٌ للتاريخ العربيّ، ناقمٌ عليه لذلك « ينفض يده من التّاريخ العربيّ وكأنَّه ليس تاريخه، إنَّه لا ينتسب إليه؛ بل إلى كل خارج عليه، فيعتبره وحده هو المبدِع وهو المتحوِّل، وينفض

(1) ينظر: فاضل، جهاد. قضايا الشِّعر الحديث. ص: 72.
(2) المصدر نفسه. ص: 77.
(3) نفسه. ص: 79.
(4) نفسه. ص: 90.
(5) نفسه. ص: 213.
(6) صدمة الحداثة لأدونيس (صدمة لأصول البحث العلمي ولروح الحداثة). فاضل، جهاد. نقلا عن:« إشكالية الموقف الأدونيسي من التُّراث في ميزان النقد». تاوريريت، بشير. ص: 72.

يده من الخطِّ العام للتراث العربيّ (...) الَّذي يعتبره هو موميائيا جامدا»[1]، لا حضور له في حياته.

ولعلَّ هذا من بين الأمور التي جعلت النَّاقد جهاد فاضل يحكم على حداثته المتجاوزة للأعراف، والمحايدة عن الأصول بأنَّها «موقف كيدي من التراث العربيّ، لا موقف إبداعي، فني، أصيل، أيُّ إبداعٍ وأي خلقٍ وأيَّ فنٍ، والكاتب يخجل من وجه أمَّته، ومن خصائصها، ومن جذورها؟ وأيُّ حداثة يمكن أن تولدها حالة استيلاب روحي، واغترابٍ كاملٍ عن الجذور؟ ومتى كانت الحضارة أخذ بغير عطاء؟»[2]، ومقابل، إلاَّ إذا قدَّم المرء أغلى ما يملك.

تعلَّق أدونيس تعلُّقاً وثيقاً بالحضارة الغربية وبأفكارها فارتكز على أطرها، ومرجعيات روادها الغربيين في تحديث حضارة العرب، وهذا ما يصرخ به في كثيرٍ من مواقفه الَّتي ندَّد بها، فيقول: «أحبُّ أن أعترف أنني لم أتعرف على الحداثة الشِّعريّة العربيّة، من داخل النِّظام الثَّقافي العربي السَّائد وأجهزته المعرفيّة، فقراءة بودلير، هي الَّتي غيَّرت معرفتي بأبي نواس، وكشفت لي عن شعريته وحداثته، وقراءة مالارميه هي الَّتي أوضَحت لي أسرار اللُّغة الشِّعريّة عند أبي تمام، وقراءة رامبو ونرفال وبريتون هي الَّتي قادتني إلى اكتشاف التَّجربة الصُّوفيّة، بفرادتها وبهائها... »[3]. وفي كلِّ هذا الكلام، يرى النَّاقد –جهاد فاضل- شساعة الأداء الهجوميّ الأدونيسيّ على التراث وعلى الدّين وعلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة، الرَّاكنة والقاصرة-في نظر أدونيس- على «طلب السَّلامة والنَّجاة، في حين أنَّ الحضارةَ الغربية قامت على طلب المغامرة والاكتشاف»[4]، والسَّفر في عوالم الغيب.

برز إلى السَّاحة النَّقدية ناقدٌ آخرٌ أيَّد ما ذهب إليه النَّاقد جهاد فاضل، في رفضه لكتابات أدونيس (شعراً ونثراً)؛ وهو النَّاقد نبيل سليمان صاحب كتاب "مساهمة في نقد النقد الأدبي " الَّذي وقف هو الآخر موقفاً ضدِّياً من معاملة أدونيس للتُّراث العربيّ.

يؤكِّد النَّاقد نبيل سليمان بعد قراءته لمواقف أدونيس، أنَّه غير مدرك لهذا التراث ونتيجة لذلك يخلط ترتيب أوراقه؛ فهو مرَّة يُوجب على الشَّاعر إدراك القديم والنَّسج على منواله، ليرى في أخرى أنَّه لا شعر عربي خالص. ولأجله رفض النَّاقد هذا التذبذب والخلط بقوله: «كلَّ ذلك لاغبار عليه وإن كان المرء يطمح أن يلتفت

(1) المرجع نفسه. ص: 72.
(2) نفسه. ص: 72.
(3) أدونيس، علي أحمد سعيد. الشِّعرية العربية. ص: 86.
(4) تاوريريت، بشير. « إشكالية الموقف الأدونيسي من التراث في ميزان النقد». ص: 72.

تحديد التراث إلى الجوانب الماديّة لا الفكريّة وحسب، بيد أنَّ هذا التّصوير لواقع موقف الشَّاعر العربي من التراث غير صحيح بمثل هذه العموميّة، الَّتي أطلقها أدونيس فهو نفسه يأخذ قبل ذلك على هذا الشَّاعر نسخه القديم وتكراره ويؤكد أنَّ لا شعر عربيّا مطلق، ولا شاعر كذلك، فثمة شعر عربي قديم وآخر جديد، وثالث معاصر »[1]، في نظر النّاقد أدونيس.

يواصل النَّاقد كلامه على التَّغييرات المطروءة على الكتابة الشِّعرية الجديدة من منظورها الأدونيسي. وفي إطار ما سمَّاه بالرُّؤيا القائمة على اللاتجانس واللاتحديد واللامعقول، التنبؤ، ومخالفة التركيب العادي للُّغة في السِّياق الجديد بإنشاء علاقات بين صور متناقضة ومتضادَّة، فلا يجوز للرؤيا -حسب أدونيس- « أن تكون منطقيَّة، أو أن تكشف عن رغبة مباشرة في الإصلاح، أو أن تكون عرضًا لايديولوجيا ما »[2]، تعيق حركة الشَّاعر في تعبيره.

وهو تصوُّر ازدراه النّظر النَّقدي المضاد والمتبنى من جهة الناقد؛ إذ«يبدو أقل تناقضا وميوعة (...)؛ وهو يبدو متابعة منسجمةً مع ما قدَّمه في الرُّؤيا، ولكن إذا ما أفردنا على حدَّة ما أورده عن الصُّورة الفنيَّة في الشِّعر الجديد، فلن يبقَ سوى ما يمكن إجماله في أطروحة صوفيَّة، غيبية –أي دينية بمعنى ما-للشعر الجديد، أطروحة لا اجتماعية ولا تاريخية، لكن هل نستطيع ذلك الإفراد.

إنَّ أجزاء الجهد الأدونيسي متلاحمة وإلاَّ لكان سهلاً، كشف التزويق والمخادعةِ وتمييع الحدود، وتداخل الثَّورة باللاثورة»[3]، وعليه يكون النَّاتج من هذا، شعراً نابعاً من غير هويةٍ ومن غير تأسيس، شعراً وجد من العدم ليعود إلى العدم، شعراً بدون مرجعيّة يستند عليها الشَّاعركونه الثَّائر والمجدِّد، فلا يصل إلى غاية وتنقطع خيوطه الخافتة، قبل أن يصل إلى القارئ (النَّاقد) ليُجْزِأه(يحكم على بالجودة) أو يزدريه.

ولا تزال المواقف المنذِّدة بالرَّفض الأدونيسي للتراث تتواتر مع كلِّ ناقدٍ، أدلى بدلوه في المسألة ليزيد النِّقاش حدَّته القصوى مع نصر حامد أبو زيد صاحب كتاب "إشكاليات القراءة وآليات التَّأويل"و فيه تعرَّض للموقف الأدونيسي من التُّراث.

رأى النَّاقد "نصر حامد أبوزيد" أنَّ أدونيس لا يرتبط بالتراث؛ وهو خارج عنه، حاقدٌ عليه؛ وهي رؤية يوقنها حتَّى أدونيس الَّذي «يؤمن على النَّقيض أنَّ علاقته بالتراث علاقة انفصال كاملة، إنَّه يسلِّم بأثر التُّراث وينفيه في نفس الوقت،

(1) سليمان، نبيل. مساهمة في نقد النَّقد الأدبي. دار الطليعة، بيروت، ط1 ؛ 1983م. ص: 18.
(2) أدونيس، علي أحمد سعيد. مقدمة للشِّعر العربي. ص: 11.
(3) سليمان، نبيل. مساهمة في نقد النَّقد الأدبي. ص: 22.

وهو لذلك يدين أي ارتباط بالتراث»[1]؛ أي أنَّه لا يفتأ أن يقرَّ بالماضي إلاَّ وغايته التّغيير والهدم، لذلك أُلزم على المبدِع عدم تكرير الأشياء الَّتي قيلت في الماضي والعمل على تثبيتها وتوطيدها في الحاضر؛ لأنَّها مستمدَّة من نتاج تاريخي و«أيُّ نتاج يتجاوزه التّاريخ من حيث إنَّه تعبير عن تجربة محدَّدة لا تتكرَّر، في مرحلة لا تتكرَّر»[2]، فهو في حركة مستمرَّةٍ وتجدُّدٍ دون الوقوف عند مرحلة أو زمن.

فهِم أدونيس التراث في ظلِّ الثَّقافة السَّائدة ذات الرُّؤية التقليديّة والَّتي بُنيت على الاتباع وررفض الإبداع[3]. وهي في نظره تحدُّ من قدرات الشَّاعر أو الكاتب الابداعيّة وتجعله يعيِّد المقولات المسبَقة الجاهزة دون أن يضيف إليها شيء، فيبقى بهذا الشَّكل رهين تراثه ليس له القدرة على إعادة تشكيله وتجديده، وبهذا لا يمكن «أن تنهض الحياة العربيّة ويبدع الإنسان العربي؛ إذ لم تنهدم البنيّة التقليديّة للذِّهن العربي، وتتغيَّر كيفية النّظر والفهم الَّتي وجَّهت الذِّهن العربيّ ولا تزال توجِّهه»[4]، فنهضة العرب إذن متعلقة بالثورة على التراث.

وفقاً لهذه النَّظرة بنى النَّاقد العربي أدونيس موقفه من التراث، لكنَّها لقيت رفضاً مطلقاً من قبل نقادنا. فموقفه كما يقول "نصر حامد أبو زيد": «يختلف جوهريًّا عن الموقف الَّذي يؤمن بجدليّة العلاقة بين الماضي والحاضر، إن موقفَ أدونيس– رغم ديناميكيته الظَّاهرة – مازال يتعامل مع التراث باعتباره وجودًا في الماضي، إنَّه يفهمه لكي يهدمه، يكتشف عناصر الجدَل والصِّراع فيه، لكنَّه يؤمن بأنَّ هذه العناصر تفاعلت هناك في الماضي وانتهى دورها، إنَّ رغبةَ أدونيس في الانفلات من الماضي وهدمه تنبع أساسا من رغبته في هدم الثَّقافة السَّائدة»[5]، وهي التراث بمفهوم أدونيس.

إنَّ الآراءَ النَّقدية الَّتي مثلتها عيّنات النُّقاد من الموقف الأدونيسيّ، آراءٌ سلَّطت الضَّوء على خبايا كانت دفينة في التراث، وإن كان ردُّه على هؤلاء منصِف في بعض جوانبه، إلاَّ أنَّ جوانب أخرى بقيت غامضة.

---

(1) أبو زيد، نصر حامد. إشكالية القراءة وآليات التَّأويل. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3؛ 1994م. ص: 233.
(2) أدونيس، علي أحمد سعيد. الثَّابت والمتحوِّل بحث في الإتباع والابداع عند العرب (صدمة الحداثة)، ج3. ص: 228، 229.
(3) أبو زيد، نصر حامد. إشكالية القراءة وآليات التَّأويل. ص:232.
(4) أدونيس، علي أحمد سعيد. الثابت والمتحوِّل بحث في الإتباع والإبداع عند العرب (الأصول). دار السَّاقي، بيروت، لبنان، ط7؛ 1994م، ج1. ص: 64.
(5) المصدر السَّابق. ص: 232، 233.

وعليه نقول إنَّ النَّاقد العربي أدونيس قرأ التُّراث وفقا لنظرةٍ حداثيّةٍ نهضويّةٍ، تجاوزت كلَّ المفاهيم القديمة (المصطلحات) الَّتي خَلُصت صلاحيتها فلم « يعد يسمَّى عصر النَّهضةِ في الخروج إلى فضاء الشِّعر الحقيقيّ، كان على العكس من النّاحية الشّعرية إستمرار للانحطاط(...) يبدو عصر الإنحطاط بالنِّسبة إليه عصراً أكثر إغراقاً في التَّبعيّة وفي التّقليد. وبهذا يبدو عصر النَّهضة ذهبيًّا؛ فإنَّ الإنحطاطَ أكثر حداثة وحيويَّة »[1]، فالنَّهضة هي أقرب المصطلحات المنوّهة بالتَّغيير وحمل لواء التَّجاوز في إغناء هذا التراث وتنويعه وتفعيم حركته وتحريرها، وإعادة تشكيله وقراءته في ظلِّ الإطار النَّهضوي؛ وهي قراءة سميَّت في النَّقد المعاصر بالقراءة التثويريَّة للتُّراث[2].

2. موقف النُّقاد من تعامل أدونيس مع اللُّغة[*]:

لم يرفضِ النُّقاد مواقف أدونيس في تعامله مع التراث العربي فقط، وإنَّما ازداد الرَّفض حدَّةً مع نقدة الشِّعر العرب، من خلال تعامله مع اللُّغة الشّعرية وتشكيلها لخلق نصٍّ شعريٍّ مميَّزٍ؛ إذ أضحت مهارة الشَّاعر الحداثي ملاعبة اللُّغة خروجاً عن عادتها اللُّغوية معنى ومبنى (القاعدة المعياريّة)، وهو عرف سائد في تزيين هذه المادَّة الَّتي نقتات منها في التَّواصل.

فالكلام في نظر النُّقاد المعياريين لا يصحُّ إلا إذا رُصِفَ في سياقٍ تتساير فيه كلّ كلمة مع قاعدتها اللُّغويّة المُـقَـعَّد لها مسبقاً، والمقتضية لأن يكون لكلّ فعلٍ فاعلٌ، ولكلِّ فاعلٍ مفعولٌ به إذا كان فعله متعدٍ وهكذا. إلاَّ أنَّ أدونيس لايراعي هذه الأساسيات وهذه النّظرة النَّمطيّة في لغته الشِّعرية؛ فهو يرى أنَّ الشَّاعر: «لا يفكر في القاعدة حين يكتب اللُّغة، فيه قبل القاعدة. إنَّه يجد نفسه فيما يكتب، سابحاً في بحر اللُّغة، حتَّى أنَّ الكلماتِ الَّتي يستعملها تبدو في سياقها الَّذي يبتكره(...) حتَّى أنَّنا نشعر فيما نقرأها أنَّنا لا نقرأ الكلماتِ وإنَّما نقرأ أصداءَ حروفٍ، أو نقرأ شحنةً نفسيّةً و تخيليَّة أفرغت كليّا من معناها المعجمي، وممَّا وضعت له في الأصل اللُّغوي»[3].

ولأجل ذلك أجاز له أن يكتب وفقاً لما تمليه عليه تجاربه وعواطفه، باعتباره أميرَ كلامٍ صانع له.هذا ما حوَّل بعض قصائد الحداثة العربية إلى فوضى لغويّة،

---

(1) أدونيس، علي أحمد سعيد. مقدمة للشِّعر العربي. ص: 76.

(2) ينظر: حسن البنا، عز الدِّين. قراءة الآخر قراءة الأنا (نظرية التلقِّي وتطبيقاتها في النَّقد الأدبي العربي المعاصر). الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1 ؛ 2008م. ص: 157.

(*) سبقتنا في دراستنا لهذا المبحث بحوث ومقالات عديدة اعتمدنا على أهمها كمقال الباحث محمَّد عبدو فلفل الموسوم بـ"بِنية اللُّغة الشِّعرية بين القداماء والمحدثين". منشور بمجلة الموقف الأدبي، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، (ع361)؛ 2001م.

(3) أدونيس، علي أحمد سعيد. كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ط 1؛ 1989م. ص: 178.

فاقت الغموض الفنِّي المحبَّب في القول الشِّعري، لتلج إلى شُعَبٍ كثيفة في الابهام والاغراق والاستغلاق. الأمر الَّذي جعل المتلقِّي لا يتجاوب مع الكثير من شعر الحداثة.

هذا ما رفضه النُّقاد المعاصرون العرب المتمسِّكون بقواعد اللُّغة العربيّة كالنَّاقد "صلاح فضل" الَّذي عزَّز من علاقة اللُّغة بعلم النَّحو، وقد جعله سبباً من أسباب إتِّصاف الشِّعر الحداثي والمعاصر بصفة الشِّعرية فيقول: «ندرك أهمية فكرة توظيف العلاقات النَّحويّة على المستوى الدَّلالي لخلق نماذج الرؤيا الشِّعرية للعالم، وهذا يكشف خطأ النَّظرة الأحادية الَّتي تحصر الشِّعرية في الخواص التَّصويريَّة والرَّمزية للنصِّ، متجاهلة بقيّة الأبنية المؤسِّسة للدَّلالة الكليَّة، ومن أنشطها البِنية النَّحويّة»[1]، المؤسسة للنَّص الشِّعري والنثري على السواء.

فالشَّاعر رُخِص له توظيف قدر من الغموض والرَّمز، لمراوغة القارئ والرَّفع من الأداء اللُّغوي في صناعة الشِّعر وهو أمر محمود يرقى بالإبداع، لكن دون المساس بالبِنية النَّحوية التَّرابطيّة للكلام.

ومن النُّقاد من يعوّل على علم النَّحو في تفسيره للنَّص الشِّعري وغيره كالنَّص الديني مثلاً، ويرى أنَّه الموصل إلى دلالة النَّص، كعبد اللطيف حماسة الَّذي يرى - هو الآخر- أنَّه: «لابدَّ من تعانق النَّحو مع النَّص الأدبيّ والانطلاق من النَّحو في تفسير النَّص الشِّعري، إذ إنَّ النَّصَ لا يمكن أن يتنصَّص، إلاَّ بفتل جَدِيلة من البِنية النَّحويّة والمفردات، وهي الجديلة الَّتي تخلق سياقاً لغوياً خاصاً بالنَّص نفسه، وعند محاولة فهم النَّصّ وتحليله، لابدَّ من فهم بنائه النَّحوي على مستوى الجملة أولاً، وعلى مستوى النَّص كلّه ثانياً »[2]، وبهذا يكون النَّحو من أقوى الأدوات المساعدة على القراءة والتَّأويل.

إنَّ التَّصورَ الأدونيسي للغةِ الشِّعر الحديث قائمٌ على مغايرة أفانين القول بتحطيم قدسيَّة اللُّغة جملةً وتفصيلاً؛ لأنَّ الشَّاعر في نظره لا يتشبَّث بالأسلوب العادي، وإنَّما يتجاوزه ليأتي بشيءٍ جديدٍ مفارقٍ للفظة الواحدة في سياقها المعتاد. أمله في ذلك مباغتة المتلقِّي وإدهاشه، وفي هذا يقول أدونيس: « أوَّل ما أعمله أفرغ هذه اللُّغة من محتواها وأحاول أن أشحنها بدلالات جديدة تخرج عن معناها الأصلي»[3]. وما يترتَّب عن هذا الشّحن من غموضٍ مصوّر لأجمل ما في طاقات اللُّغة، وقد يشينه إذا أقفل عن المتلقِّي ولم يستطع فكّ شفراته وطلاسمه. وهذه هي

(1) فضل، صلاح. أساليب الشِّعرية المعاصرة. ص: 138.
(2) حماسة، محمَّد عبد اللطيف. اللُّغة وبناء الشِّعر. مكتبة الزهراء، القاهرة، ط1 ؛ 1992م. ص: 07.
(3) العكش، منير. أسئلة الشِّعر(في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها). ص: 82.

اللُّغة الَّتي يرتئيها أدونيس «لغة بنوَّةٍ لا أبوةٍ لغة آتٍ لا ماضٍ»[1]؛ وهي لغة جديدة لم يعهدها لا السِّياق ولا المتلقِّي.

حمَّل هذا الموقف الأدونيسي من اللُّغة النَّاقد "يوسف سامي اليوسف" الَّذي وصف تنظيراته للُّغة الشِّعرية بالمفتعلة؛ لأنَّها تقُوْم على المبالغة والتَّطرُّف[2]. إلاَّ أنَّ المبالغةَ الأدونيسيّة فاقت ما دعى إليه البلاغيون قديماً لتصل إلى صور ممتنعة عن الفهم؛ وهي طبيعة في الشِّعرالحديث والمعاصرالمتجاوز « للُّغة الدّلاليّة إلى اللُّغة الإيحائية؛ وهو عبور يتمُّ عن طريق الإلتفات خلف كلمةٍ تفقد معناها على مستوى لغويّ، أوَّل لتكسبه معنى آخر وتؤدِّي بهذا دلالة ثانية، لا يتيسَّر أداؤها على المستوى الأوَّل»[3]، وبها يعيد الشَّاعر إلقاء اللُّوم على القارئ.

وإذا طرحنا مقولة أدونيس-الآنفة الذِّكر- عند منظِّري القراءة ونظرية التلقِّي، كالنَّاقد عبد الله الغذامي وغيره، نجدهم يركِّزون على القارئ الواعي النَّوعي، أكثر من صاحب النَّص.

يرى هؤلاء –الغذامي وبعض النُّقاد- أنَّ صاحب النَّص غير قادرٍ على التَّحكم بزمام اللُّغة، كونه ينظم من قاموسه الخاص، دون البحث في ماهية الكلمة وأبعادها المتعدِّدة الَّتي لم يعيها في لحظة كتابته وغابت عن ذهنه. لكنَّها لم «تَغِبْ عن الكلمة الَّتي تظلُّ حبلى بكلِّ تاريخياتها، والقارئ حينما يستقبل النَّص فإنّه يتلقَّاه حسب معجمه، وقد يمدُّه هذا المعجم بتواريخ لكلمات مختلفة عن تلك الَّتي وعاها الكاتب حين أبدع نصَّه، من هنا تتنوّع الدَّلالة وتتضاعف ويتمكن النَّصّ من اكتساب قيمٍ، جديدةٍ، على يد القارئ وتختلف هذه القيم وتتنوع بين قارئ وآخر»[4].

فالقراءة هي ما تجعل النَّص ينمو ويزخر بإحيائها لدلالاتٍ جديدةٍ كانت متخفِّية وراء ظلال الكلمة الواحدة الغائبة عن صاحبها الأوَّل الَّذي لم يبحث في أصولها و تركها حرَّة في سياقها يفسرها القراء على اختلاف مواهبهم. هذا السِّياق الَّذي سمَّاه

(1) أدونيس، علي أحمد سعيد. زمن الشِّعر. ص: 114.

2- ينظر: اليوسف، يوسف سامي. الشِّعر العربي المعاصر. نقلا عن: فلفل، محمَّد عبدو. «بِنية اللُّغة الشِّعرية بين القداماء والمحدثين». ص: 20.

(3) ينظر: كوهين، جون. بنية لغة الشِّعر. نقلا عن: فضل،صلاح. نظرية البنائية في النَّقد الأدبـــي. دار الشروق، ط1؛ 1419هـ -1998 ص: 240، 241.

(4) الغذامي، محمَّد عبد الله. الخطيئة والتَّكفير(من البنيوية إلى التشريحية نظرية وتطبيق). الدار البيضاء، المغرب، ط6؛ 2006م. ص: 73.

عبد الله الغذامي «بالذّهني وهو المخزون النَّفسي لتاريخ سياقات الكلمة، ومن يملك هذه المهارة؛ فهو القارئ الصحيح»[1]، القادر على تفسير النَّص وتفتيت دلالاته.

وإضافة إلى المواقف النَّقدية الرّافضة رأى "أحمد يوسف داوود" أنَّ خرق الشَّاعر المعاصر لقانون اللُّغة وتجاوز قواعدها النَّمطية الموروثة في الشِّعر الرُّؤياويّ لا أساس له من الصِّحة؛ لأنَّ«الإبداع لايكون بالرؤيا والإلهام و حسّ النبوّة؛ وإنَّما بالرُّؤية والمعرفة وهكذا لاتنفصل اللغة عن أصولها، إلا بمقدار انفصال الممكن عن الرَّاهن »[2]، وهذا الرفض يعود بنا إلى البدايات الأولى للشِّعر الجديد وانتقال الشَّاعر من رؤيته إلى رؤياه، وبالتَّالي لا يمكن الفصل بينهما، فلكلِّ رؤية رؤيا والعكس غير صحيح.

يذهب نقاد ومنظرو اللُّغة الشِّعرية في اتِّهام أدونيس إلى أبعد من ذلك، كالناقد "جهاد كاظم" الَّذي نعته بالانتحال في كتابه المعنون بـ"أدونيس منتحلاً"، فرأى أنَّ كلِّ مواقفَه النقديَّة والشعريَّة المتجسِّدة في أعماله من الغرب. فقد أخذ مثلا عن ألبيريس مفاتيح الشِّعر الحديث، منها قوله: «إذا كنَّا نريد تعريفاً لشعرٍ خاصٍ بعصرنا، ينبغي ألاَّ نبحث عنه في تقلبات الشَّكل ولا في الاختفاء التدريجي لضوابط البيت، بل في وظيفة الممارسة الشِّعرية الَّتي تجعل من نفسه بحثا عن حقيقة خفيَّة، ولهذا كان للشِّعر الحديث الحق في أن يكون غامضاً، متردِّدًا لا منطقيًّا... »[3]؛ لأنَّه بحث دائم عن واقع مثالي، مجرَّد، يسمو عن واقعه المعاش.

هذا ما قام عليه التَّنظير الأدونيسي الحداثي للشِّعر؛ إذ نرى أنَّ كلام النَّاقد ألبيريس تكرَّر حرفيّاً في كتاب أدونيس "زمن الشِّعر" الَّذي يقول فيه: «إنَّ الشِّعرَ الجديد باعتباره كشفاً ورؤيا، غامضٌ ومتردِّدٌ، لا منطقيّ ،لهذا لا بدَّ له من العلو على شروط الشَّكلية؛ لأنَّه بحاجةٍ إلى مزيدٍ من السرّ

والنبوَّة، فالشَّكل يمحى أمام القصد والهدف، ومع ذلك فإنَّ تحديدَ شعر جديد خاص بنا نحن في هذا العصر، لا يبحث عنه جوهرياً في فوضى الشَّكل ولا في التّخلِّي المتزايد عن شروط البيت، بل في وظيفة الممارسة الشِّعرية الَّتي هي طاقة ارتيادٍ وكشفٍ»[4]. وتساؤلٍ دائمٍ عن الحقيقة.

---

(1) الغذامي، محمَّد عبد الله. الخطيئة والتكفير(من البِنيويّة إلى التشريحيّة نظرية وتطبيق). ص: 73.

(2) داود، أحمد يوسف. لغة الشِّعر. وزارة الثقافة، دمشق ؛ 1980م. ص: 254.

(3) جهاد، كاظم. أدونيس منتحلا (دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجاليَّة التَّرجمة يسبقها: ما هو التناص؟). مكتبة مدبولي؛ 1993م. ص: 109.

(4) أدونيس، علي أحمد سعيد. زمن الشِّعر. ص:14.

سلَّطت هذه الرؤى النَّقدية المضادة الضَّوء على مقتطفات من الممارسة الإبداعيّة الأدونيسيّة، في تنظيرها للقول الشِّعري الحداثي والمعاصر الَّذي تجاوزت لغته التَّقرير والمباشرة لتلج من أبواب الخلق، والكشف الواسعة.

فأدونيس في كثيرٍ من آرائه يُسِرُّ على الثَّورة والتَّغيير، لكنَّ التهديَم للُّغة كما زعم، لا يكون في خروجا عن ضوابطها النَّحويّة الَّتي ثبَّتها النُّحاة، كما لا يكون في المبالغة المغرقة للمعاني ومخالفة معناها لتصل إلى درجة الإبهام والتَّعتيم والأحجية. الأمر الَّذي شان القول الشِّعري الحداثي، فما يَهُمُّ النُّقاد هو القول الشِّعري الَّذي يضفي عليه الشَّاعر الفحل الجماليّة والرّونق،كونه أميرَ كلامٍ يتحكَّم في آليات اللُّغة.